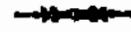


برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء

## أحلام ...

للأستاذ محمد محمد المدني



كنت يوماً من الأيام راضى النفس ، ساكن الجأش ، هادئ الماطفة ؛ ونظرت فإذا بارقة من أمل تبرى في جو الأزهر فينبثق منها نور وهجاج تضوء به أرجاؤه ، وتصفوه سماؤه ، ويشرب إليه الناس بأبصارهم وأعتاقهم متطلعين

كتبت يومئذ في ( الرسالة ) مقالاً : أما موضوعه ، فهو موضوع اليوم « برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء » ؛ وأما عنوانه الذى أوحى به النفس يومئذ ، فقد كان كلمة جميلة خفيفة على الأسماع ، أعتقد أنها ترجمة وانحة لما كان يدور بالنفوس المستبشرة قبل أن تكون عنواناً لقال يتحدث عن أعمال « جماعة كبار العلماء » ، تلك الكلمة هي « آمال ... »

ولكننى أعترف الآن أننى كنت مغالياً ومصرفاً في الخيال إلى حد بعيد حين اخترت هذه الكلمة عنواناً لقالى ، وأنه كان على يومئذ أن أذكر تاريخ الإصلاح في مصر بوجه عام ، وتاريخ الإصلاح في الأزهر بوجه خاص ، لأختار كلمة أخرى غير كلمة « آمال » . ولست أدري : أمن تقاليد ( الرسالة ) أن تسمح أحياناً لكتابتها بتصحيح ما سلف من المناوين ؟ ولكن أنى ذلك وقد سارت بذكرها الركيان ، واقضى عليها أزمان وأزمان ؟ عفا الله عما سلف ! وليكن حديث اليوم تصحيحاً لحديث أمس ، ولنجعل عليه عنواناً غير ذلك المنوان ، هو « أحلام ... »



كتب الأستاذ الكبير صاحب ( الرسالة ) مقالاً خطيراً بالعدد (٤٥٦) عنوانه « لا بد للإسلام من مؤتمر » ؛ وقد استعرض فيه حالة الشرق والعرب ، وذكر تودد العرب إلى المسلمين في ظروفهم الحاضرة ، ثم عرج بالحديث إلى « العلماء » فقال :

« ولئن سألتنى بعد ذلك : هل بلغ العلماء رسالة الله ؟ لآجولن لك : « لا » منغلظة مكبرة مكررة ! وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة ، وأن عليهم تيمة : رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل ، ورجال الحكم يتصرفون ببطل أو بظلم ؛

أما رجال الدين في ممالك الوطن الإسلامى كله ، فقد قتموا بالقلب والذى ، واكتفوا بالشيخ والرى ، ورضوا أن يكونوا متوناً لقوى الطمع ، وحواشى لأولى النعمة ، وهوامش على صفحة الحياة ! » قال الأستاذ الزيات ذلك . ومضى في مقاله البليغ يؤيده بالحجج ، ويضرب له الأمثال ، ويهزبه النفوس ، ويشير به كوامن الشجون ؛ ثم قال : « لقد عقدنا الآمال بالأزهر في كل ذلك ، فهل عقدناها بلعاب الشمس ؟ كانت جماعة كبار العلماء معقد الرجاء ومناطق الثقة ... ولكن برنامج الإصلاح الذى اقترحه شبابها المصلحون ، وأقره أقطابها المخلصون ، قد أدركته أزمة رجمية توشك أن تخنقه في درج الشيخة ؛ فإن عضواً من الجماعة يوجب منه شراً : فهو ينسج حوله الشكوك ، ويؤلب عليه القوى وقد ينجح في ذلك . فهل يجوز في ظن امرئ أن يكون في كبار العلماء من يشتهه عليه الحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد ؟ ذلك ما لا نصدقه ، ولا نود أن تجرى الأمور بما يحققه » قرأت هذا المقال مثنى وثلاث ورباع ، واشتد على وقمه ، وساء في هذا النبا المائل الرهيب الذى تضمنه ، وقلت لنفسى : هذا يوم له ما بعده ! سوف يتكلم الأزهر ، وسوف يدفع العلماء عن أنفسهم ، وسوف تتحرك الجماعة الموقرة لتثبت للناس أنها سامعة لكل ما يدور حولها ، واعية لكل ما يقال عنها ، ولكنى تلبثت لذلك أسبوعاً ، واستظهرت من بعده بأسبوع آخر فلم أجد أحداً من الأزهرين ، رسميين أو غير رسميين ، يعرض لذلك بتصحيح أو تكذيب ، ولم ألمح في جو الجماعة ما يدل على أنها موشكة أن تجتمع لترى في برنامج الإصلاح رأيها . وقد عنيت في أثناء ذلك أن أستمع إلى أحاديث الناس في الأزهر وغير الأزهر عن هذا الشأن الخطير ، فسمعت أحاديث عجبا !

هذه رواية تقول : إن أشخاصاً معينين قد ألفوا التصويق عن الخير ، والتخزيب عن الإصلاح ، قد وقفوا من هذا البرنامج موقف المحارب في السر والعلن ، وجلوا بصرحون في مجالسهم بأن هذه المقترحات لن تتم أبداً ، ولن تأخذ طريقها إلى التنفيذ ! وهذه رواية أخرى تنقل عن أحد أعضاء الجماعة عبارة يدأب على ترديدها ويرى بها في وجوه الناس إذا سألوه فيقول : إن هؤلاء الشبان من أعضاء الجماعة يريدون أن يقلبوا الدنيا وأن يغيروا أوضاع العلم في الأزهر . وأن يفسدوا الدين ! وهذه رواية ثالثة تقول : إن مديراً من مديري إدارات الأزهر

أجل ! أجل ! و « أرى هكذا خلقت ! »

ارجع ، أيها القارىء ، إلى مجموعات الصحف والمجلات والسجلات الحكومية تر العجب العجيب : برامج للتعليم بعضها في أثر بعض ، وبرامج لإيقاظ الفلاح وتحسين حالة الفلاح ، وبرامج للشئون الاجتماعية ، يطنطن بها القعاة ، وتنتلي بها السامع والأفواه ، وبرامج حتى للطرق ، وتنظيم المدن ، وتخطيط الشوارع تتداولها أوامر الإقرار تارة ، والإثناء تارة ، والتعديل تارات ؛ وهكذا تفيض مصر بالبرامج إلى البرامج حتى لو عينا بجمعها وترتيبها والتبويب لها لأخرجنا من ذلك كتاباً ضخماً ذا مجلدات ! ولكنها برامج لم توضع لتنفذ وتطبق ، ولكن لتكون آية يستدل بها الناس على عبقرية واضعها ، وتكتب عنها الصحف أياماً أو شهوراً تفيض في تعديد مزايها ، وتطلب في بيان فوائدها وما يرجي من آثارها . وما بي من حاجة إلى دليل أؤيد به ما أقول ، فهذا هو التعليم يتعثر في خطاه ، وهذا هو الفلاح ما يزال كما كان يشرب الطين المذاب ، ويدوق من قهره وذيته ومراره ألوان المذاب . وهذه هي برامج مصلحة التنظيم يحسب الناس أنها لكثرة ما اعتورها ، وشدة الإبطاء في تنفيذها ، قد وضعت لتنفذ وينعم بمزاياها سكان البلاد في القرن الثلاثين ، لا في هذا القرن العشرين !

فلماذا لا يكون الأزهر أيضاً كهذه المصالح الحكومية ؟ إننا معاشر الأزهريين مصريون ، ولا أحسب أن المصرية تتمثل بجميع خصائصها في بيئة من البيئات كما تتمثل في الأزهر ، فإذا أراد امرؤ أن يطبق على هذا الخلق الذى سجله أمير الشعراء على مصر حين قال :

« كل شيء فيه ينسى بعد حين »

وجد الأمثال بين يديه حاضرة في الأزهر قبل سواء ، فله أن يمثل « بمشروع ترجمة القرآن » أو إن شئت فسمه « مشروع ترجمة تفسير القرآن » وله أن يمثل « بلجان الصيد الألتى للأزهر » التى ألفت على الورق ، وورصدت في السجلات ، ولم تعمل شيئاً ، بل لم تجتمع فيما أظن حتى اليوم ! وله أن يمثل « بمشروع تنظيم المكتبة الأزهرية العظيمة » التى اجتلب له خير فنى من المتخصصين في برلين . وله أن يمثل « بمشروع إصلاح مجلة الأزهر » التى ألفت له لجنة وقد كان الأستاذ الزيات أحد أعضائها ، ثم اختنق تقريرها وليداً وما زالت المجلة كما كانت بل أسوأ مما كانت كما يعترف بذلك رجال الأزهر المسئولون . وله أن

قد ساءه أن تفكر الجماعة في انتزاع إدارته من يده . فأقسم رأس جدوده من الشراكة : لن يتم هذا البرنامج ولو كان بينه وبين التمام خطوة واحدة

على أن أثراً آخر من آثار التفكير في هذه المقترحات قد حدث فعلاً ، وبرز بروزاً رسمياً . ذلك أن لجنة معروفة في إدارة المعاهد الدينية قد رأى بعض أعضائها في هذه الاقتراحات مساساً بهم ، وتعريضاً بكفالتهم . فاتفقوا على أن يستفيوا من هذه اللجنة ورفضوا استقبالهم فعلاً إلى فضيلة الأستاذ الأكبر ، ولكنه لم يقبلها وأصرهم بالبقاء في أعمالهم !

وتقول جريدة « البلاغ » الفراء في عددها الصادر مساء التاسع من شهر إبريل الحاضر مانصه :

« قدرددت إشاعات ترجو ألا تكون صحيحة ، خلاصتها : أن بعض أعضاء جماعة كبار العلماء مع قبولهم هذا المبدأ وسائر المبادئ التى تحقق الإصلاح وتنظم جهود الجماعة والأزهر التى انتهت إلى قبولها لجنة بحث المقترحات ، لا يرون أن تنفذ تلك الآراء لأن في قبولها وتنفيذها اعترافاً ضمناً بتقصير الجماعة عن التفكير في ذلك فيما سبق ، وهذا موقف لا يرضاه أعضاء الجماعة لأنفسهم » وهكذا تختلف الروايات تبعاً لتعدد مصادرها . ولكنها كلها تجمع على شيء واحد هو : أن عقبات وقف في طريق هذه المقترحات وتحول بينها وبين التور أن تراه ، فهى لذلك حيسة في « درج الشيخة » ومستظل حيسة في هذا الدرج حتى يأذن الله \*\*\*

يا ويلتا ! أيموت هذا المشروع أيضاً كما ماتت من قبله مشروعات ؟ وماذا يقول الأزهر بعد ذلك للأمة وقد نادى في أرجائها البشير : أن قد استيقظ العلماء ، وهبوا للعمل ، وشمروا عن ساعد الجد في خدمة الدين ونصرة الشريعة ؟

أهكذا يا مصر تنفرج فيك إلى هذا الحد « مسافة الخلف بين القول والعمل » ؟ . أحين تكون الأعمال فكراً تجوز في النفوس ، أو مشروعات تكتب على الأوراق ، يسمع الناس لها نحيباً عالياً ، ودويماً صاخباً ، ويرون من حولها هيئات تجمع ، وجلسات تعقد ، وأقلاماً تكتب ، وصحفاً تنشر ، وبشارات تتوالى ، ويخيل بها على الناس أن الأمر جد ، وأن الوعد حق ، وأن ساعة التنفيذ آتية لا ريب فيها ؛ ثم تخفى الأيام ، وتتلاحق الشهور والأعوام وهذه للمشروعات ساكنة لا حراك بها ، يملوها غبار ، ويرهبها قنار ، وتوحشها ظلمات الإهمال أو النسيان



والمجلة

أصدرته بمناسبة ذكرى مولده مجده



## مجلة الفكرة العربية والثقافة الإسلامية

صدر هذا العدد في موعده بتاريخ أول ربيع الثاني

فهرس من موضوعاته العدد

المتنصر : بتوقيع الأنصار - هذه ستي : من كلام الرسول -  
لماذا هو عهد ؟ : بقلم طالب جلي - مولد الرسول الأمين : الأستاذ  
محمد أبو بكر إبراهيم - عهد القائد والزعيم : الأستاذ محمد علي ناصف -  
كيف دعا محمد للإسلام : الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني - محمد طيب  
الإنسانية : الدكتور عبد الواحد الوكيل بك - محمد يحرر أوروبا :  
الأستاذ أحمد عطية لفة - هذا اليتيم ! : بقلم معلم لازمي .. - مدينة  
الجهاد : الدكتور أحمد فكري - الحضارة البيضاء : قصيدة للأستاذ  
محمد المهياوي - كوكب السماء : قصيدة للأستاذ عمر الفسوق ( مدير  
مجلة للقائد الإسلامية بيروت ) - محمد كما يصوره المصريون ! :  
الأستاذ حسن عبد القصور - القطة الإسلامية وحب العرب : بقلم  
د أحمد صبري - نابليون يحتفل بمولد النبي ! : الأستاذ محمد طاهر -  
تصور الأمم : قصيدة شاعر الهند محمد إقبال - أعياد الميلاد وتعيد ونبي ؟ !  
وبينا المدد خريطة تبين مدى انتشار المسلمين في العالم الحديث

الاشتراك السنوي في مصر والسودان والأقطار العربية ٢٠ قرشاً وللعلم  
اللازمي والطلاب ١٥ قرشاً وللكتابات وطلب الأعداد بعنوان الأنصار

٢٤ شارع البستان - القاهرة

يتل « بالبعوث الأزهرية » التي اهتمنا بها مرة في الدهر واحدة  
ثم لم تعد كأنها بيضة الديك التي يذكرها في بعض شعره بشار !  
له أن يتل بهذا كله مما ذكرنا ، وله أن يتل بغيره مما لم نذكره ،  
فليس الأمر إذن أمر برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء  
وحده ، وإنما هو أمر الأزهر جيمعاً . هو أمر برامج كثيرة  
حارها الأزهر ، وعنى بها فضيلة الأستاذ الأكبر ؛ بل إننا لا نعدو  
الحقيقة إذا قلنا : إن هذه المشروعات جميعها إما بتفكير مباشر  
من فضيلته ، وإما بتفكير يستمد من روحه وإلهامه ، ويراد به  
تحقيق غايته في الإصلاح ، وتنفيذ رغباته في النهوض بالأزهر ،  
وإعلاء كلمة الله ، وقد حظيت هذه المشروعات كلها بكفالاته  
فاحتضنها وأيدها وأبدى رغبته في تنفيذها ، فإلهامه هو السر إذن  
في أن هذه المشروعات النافعة تموت في طفولتها ، بل تحتق  
في مهدها ؟ ألا إن السر في ذلك معروف : إنه يرجع إلى الذين  
ألقوا أن يوقوا الإصلاح ، ويشككوا في الخير . يرجع إلى المخزيين  
المثبطين الذين ينشئ النور بأصابعهم فلا يحبون أن يروا إلا الظلام ،  
ويدوخ الجو النقي الصافي ردهمهم فلا يحبون أن يعيشوا إلا في  
الفساد . إنه يرجع ، يا سيدي الأستاذ الأكبر ، إلى الذين مردوا  
على النفاق ، ورضعوا أظفاره ، وتلونوا في كل عهد بلون ، ولبسوا  
لكل حالة لبوسها ؛ ولو نشاء لأرنا أنهم فلعمركم بسياهم !

هنا فقط موضع الملة ومكان الماء ، وهنا فقط مفصل الدواء ،  
ومقطع العلاج ، لمن أراد العلاج !

رياه ! ماذا قلت ؟ وأي سر كشفت ؟ ولكن ... لا !  
إن الأمر لم يعد سراً . وهل سرٌّ ما تقيض به المجالس والأندية ،  
وتخوض فيه الصحف والمجلات ؟

إنني أتحيل أبناءنا وأحفادنا القادمين وقد أرادوا أن يحصوا لنا  
أعمالنا ويذكرنا مبلغ برنا بعودتنا : أتحيلهم وقد وجدوا في صحفنا ،  
في جرائدنا ومجلاتنا ، مشروعات أعمالنا ، فجلسوا يتابعون البحث  
في هذه الصحف عندها بعد عدد ، ومجلداً بعد مجلد ، لهم يترن  
فيها على خبر التنفيذ كما رأوا أخبار التفكير ، لهم يرون آثار  
الأعمال كما رأوا آثار الأقوال ، ولكنهم - واخجلنا - سيحشون  
جاهدين ، ثم يولون البحث صابرين ، فلا يجدون لهذه الأعمال  
أرأ ، ولا يحسون منها شيئاً ، ولا يسمعون لها ركزاً . قليل أحدم  
يولمذ يضطجع كما يفضل أمرؤ أعياء البحث وأضناه التعب ثم يقول :  
رحمة الله عليكم أيها الآباء ! لقد كنتم تعرفون حقاً كيف

محمد محمد الحرفي

تكون الـ « أحلام ... »

للمدرس بكلية العربية